



مريم عليها السلام

اعده وعلق عليه
حامد حسين الفلاحي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذْ قالت امرأةُ عِمران رَبِّ إني نذرتُ لكَ مافي بطني مُحَرَّراً فتَقَّبل مني إنكَ أنتَ السميعُ العليم ●)(١).

وقصة النذر تكشف عن قلب امرأة عمران -أمّ مريمَ- ومايَعمُرُهُ من إيمان، ومن توجّه الى ربها بأعزّ ماتملك، وهو الجنين الذي تحمله في بطنها، خالصاً لربها، محرراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه .

والتعبير عن الأخلاص المطلق بأنه تحرر تعبير موحٍ، فما يتحرر حقاً إلاّ من يخلص لله كله، ويفرّ الى الله بجملته، وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة، فلاتكون عبوديته إلاّ لله وحده، فهذا هو التحرر، وما عداه عبودية وإن تراءت في صور الحرية ! . ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر، فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله شيء ما في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، او في الأوضاع والقيم والقوانين التي تصرّف هذه الحياة، لاتحرر وفي قلب الانسان تعلق او تطلّع او عبودية لغير الله، وفي حياته شريعة او قيم او موازين مستمدة من غير الله، وحين جاء الاسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الانسان .

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران بان يتقبل الله منها نذرها ينمّ عن ذلك الاسلام الخالص لله، والتوجه إليه كلية والتحرر من كل قيد، والتجرد من كل غاية إلاّ ابتغاء قبوله ورضاه: (ربِّ إني نذرتُ لك مافي بطني محرراً فتقبّل مني إنك أنت السميعُ العليم ●) .

ولكنها وضعتها أنثى، ولم تضعها ذكراً: (فلما وضَعَتها قالت ربِّ إني وَضَعتُها أنثى) لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً، فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلاّ للصبيان ليخدموا الهيكل وينقطعوا للعبادة والتبتل، ولكن هاهي ذي تضعها أنثى، فتتوجه الى الله في نغمة أسيفة:

(ربِّ: إني وضعتُها انثى) ! (والله أعلمُ بما وضعت) (وليسَ الذكرُ كالانثى)

ولاتنهض الانثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال .

(١) آل عمران ٣٥ .

(وإني سَمَّيتُها مريم)

وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة، مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه يحدثه بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدم له مايملك تقديماً مباشراً لطيفاً، وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم، حال الودّ والقرب والمباشرة والمناجاة البسيطة العبارة التي لاتكلف فيها ولاتعقيد، مناجاة من يحس أنه يحدّث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً.

(وإني أعيذُها بكَ وذريتَها من الشيطانِ الرجيم ●)[2]. وهي الكلمة الاخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به هي وذريتها من الشيطان الرجيم . وهذه كذلك كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص، فما تودّ لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم ! .

(فتقبلَها ربُّها بقَبولٍ حسَنٍ وأنبتَها نباتاً حسناً) . جزاء هذا الاخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر، وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح وكلمة الله، وأن تلد عيسى -عليه السلام- على غير مثال من ولادة البشر .

(وكفَلَها زكريا) وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي، من ذرية هارون الذين صارت اليهم سدانة الهيكل[3].

(كلما دخلَ عليها زكريا المحرابَ وجدَ عندها رزقاً. قال: يامريمُ أنّى لكِ هذا ؟ قالت: هو من عندِ الله، إنّ اللهَ يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حساب).

ولانخوض نحن في صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة، ويكفي ان نعرف ان مريم كانت مباركة يفيض من حولها الخير والرزق حتى ليعجب كافلها -وهو نبي- فيسألها: كيف ومن أين هذا كله؟ فلاتزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر له كله:

(هو من عندِ اللهَ إنّ الله يرزق من يشاء بغيرِ حساب ●)[4].

---

(٢) آل عمران ٣٦ .
(٣) خدمته .
(٤) آل عمران ٣٧ .

وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه، والتواضع في الحديث، لاالتنفّج والمباهاة، كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التي أثارت عجب نبيّ الله زكريا عليه السلام هي تمهيد للعجائب التي تليها في ميلاد يحيى وميلاد عيسى !.

(وإذ قالتِ الملائكةُ يامريمُ إنّ اللهَ اصطفاكِ وطهّركِ واصطفاكِ على نساء العالمين ●)(٥)

وأيّ اصطفاء !؟

وهو يختارها لتلقي النفخة المباشرة كما تلقّاها أول هذه الخليقة (آدم) عليه السلام، وعرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها، إنه اصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية، وهو بلاجدال أمر عظيم! . ولكنها حتى ذلك الحين لم تكن تعرف ذلك الأمر العظيم، والاشارة الى الطهر هنا إشارة ذات مغزى، ذلك لما لابس مولد عيسى عليه السلام من شبهات لم يتورع اليهود ان يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أن هذا المولد لامثال له في عالم الناس، فيزعموا أنّ وراءه سراً لايشرّف... قبحهم الله !!

وهنا تظهر عظمة هذا الدين، ويتبيّن مصدره عن يقين ؛ فها هو ذا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الاسلام الذي يلقى من أهل الكتاب -ومنهم النصارى- مايلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات، هاهوذا يحدّث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على (نساء العالمين) ، بهذا الاطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الافاق، وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالدين الجديد !

أي صدق ؟ وأية عظمة ؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين وصدق صاحبه الأمين!؟ .

إنه يتلقى (الحق) من ربه عن مريم وعن عيسى عليهما السلام، فيعلن هذا الحق في هذا المجال، ولو لم يكن رسولاً من الله ماأظهر هذا القول في هذا المجال بحال ! .

(يامريمُ اقنتي لربِّكِ واسجدي واركعي مع الراكعين ●)(٦).

طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم (ذلك من أنباء الغيبِ نوحيه إليكَ وماكنتَ لديهم إذ يُلقونَ اقلامَهُم أيُّهُم يكفُلُ مريمَ وماكنتَ لديهم إذ يختصمون ●)[٧].

وهي إشارة الى ماكان من تسابق سدنة الهيكل الى كفالة مريم حين جاءت بها أمها وليدة الى الهيكل وفاءً لنذرها وعهدها مع ربها، والنص يشير الى حادث لم يذكره (العهد القديم)[٨] ولا (العهد الجديد)[٩] المتداولان ،ولكن لابدَّ أنه كان معروفاً عند الاحبار والرهبان: حادث إلقاء الأقلام، أقلام سدنة الهيكل، لمعرفة من سيكفل مريم، فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة -بواسطة إلقاء الاقلام- على نحو مانصنع في القرعة مثلاً، وقد ذكرت بعض الروايات أنهم ألقوا أقلامهم في نهر الأردن فجرت مع التيار، إلاّ قلم زكريا فإنه بقى في مكانه، وكانت هذه هي العلامة بينهم .

وكل ذلك من الغيب الذي لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم حاضره، ولم يبلغ الى علمه، فربما كانت من أسرار الهيكل التي لاتذاع، فاتخذها القرآن -في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها- دليلاً على وحي من الله لرسوله الصادق، ولم يَرِد أنهم ردّوا هذه الحجة، ولو كانت موضع جدال لجادلوه !

لقد تأهلت مريم عليها السلام بالتطهر والقنوت[١٠] والعبادة لتلقّي هذا الفضل واستقبال هذا الحدث ، وهاهي ذي تتلقى -لأول مرة- التبيلغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير: (إذ قالتِ الملائكةُ يامريمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكُ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمُ وجيهاً في الدنيا والآخرةِ ومن المقرّبين ● ويكلّمُ الناسَ في المهدِ وكهلاً ومن الصالحين ●)[*].

إنها بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله، بشارة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم، فالمسيح بدل من الكلمة في العبارة، وهو الكلمة في الحقيقة، فماذا وراء هذا التعبير؟

---

(٧) آل عمران ٤٤ .
(٨) كتاب اليهود وليس هو التوراة لأنها حرفت وبدلت .
(٩) كتاب النصارى وليس هو الانجيل لأنه حرف وبدل .
(١٠) القنوت: الطاعة والخضوع .
(*) آل عمران ٤٥-٤٦ وجيهاً ذو وجاهة وكرامة . ، كهلاً: الرجل التام السّويّ .

إنّ هذه وأمثالها من أمور الغيب لامجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد، لقد شاء الله أن يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم عليه السلام من تراب، وهذا سرّ لايعلمه إلاّ الله، سرّ الحياة التي لابست آدم يوم خلقه الله سبحانه من التراب الميت، وهذه كتلك[11] في صنع الله، من أين جاءت هذه الحياة؟ وكيف جاءت؟ إنها قطعاً شيء آخر غير التراب، وغير سائر المواد الميتة في هذه الأرض، شيء زائد، وشيء مغاير، ينشيء آثاراً وظواهر لاتوجد أبداً في التراب ولافي مادة ميتة على الأطلاق.

هذا السرّ من أين جاء؟ إنه لايكفي أننا لانعلم لكي ننكر ونهذر، كما يفعل الماديون في لجاجة صغيرة[12] لايحترمها عاقل فضلاً عن عالم! نحن لانعلم، وقد ذهبت سدىً جميع المحاولات التي بذلها الانسان بوسائله المادية لمعرفة مصدرها، أو لانشائها بأيدينا من الموات!.

نحن لانعلم، ولكن الله الذي وهب الحياة يعلم وهو يقول لنا: إنها نفخة من روحه، وإنّ الأمر تمّ بكلمة منه (كُن فيكون). ماهي هذه النفخة؟ وكيف تنفخ في الموات فينشأ هذا السرّ اللطيف الخافي على الأفهام؟ ماهي؟ وكيف؟ هذا هو الذي لم يُخلَق العقل البشري لادراكه لأنه ليس من شأنه، إنه لم يوهب القدرة على إدراكه، إنّ معرفة ماهية الحياة[13] وطريق النفخة لايجديه شيئاً في وظيفته التي خلقه الله لها: وظيفة الخلافة في الأرض.

إنه لن يخلق حياة من موات، فما قيمة أن يعرف طبيعة الحياة وماهية النفخة من روح الله؟ وكيفية اتصالها بآدم، أول سلم الحياة الذي سارت فيه السلالة الحية.

والله سبحانه يقول: إنّ النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له هذا الامتياز والكرامة -حتى على الملائكة- فلابدّ إذن أن تكون شيئاً آخر غير مجرد الحياة الموهوبة للدود والميكروب، وهذا مايقودنا الى اعتبار الانسان جنساً نشأ نشأة ذاتية[14]، وأن له اعتباراً خاصاً في نظام الكون، ليس لسائر الاحياء!

(١١) أي خلق آدم وخلق عيسى، قال تعالى: (إنّ مثلَ عيسى عند الله كمثلِ آدمَ خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون) آل عمران ٥٩.
(١٢) لجاجة: عناد وخصومة.
(١٣) ماهية الحياة: سرها وحقيقتها.
(١٤) لاكما تدعيه الدارونية من أن الانسان تطوّر عن كائنات اقل منه، أي أن الانسان (حيوان) يلتقي بنسبه مع بقية الأسر الحيوانية !!.

وقد شاء الله سبحانه -بعد نشأة آدم عليه السلام نشأة ذاتية مباشرة- أن يجعل لإعادة النشأة الانسانية طريقاً معيناً، طريق التقاء ذكر وانثى، واجتماع بويضة وخلية تذكير، فيتمّ الاخصاب، ويتم الإنسال[١٥] والبويضة حية غير ميتة، والخلية حية متحركة كذلك .

ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة، حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة في فرد من بني الانسان، فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الاولى، وإن لم تكن مثلها تماماً، انثى فقط تتلقى النفخة التي تنشئ الحياة . أهذه النفخة هي الكلمة؟ الكلمة (كن) ؟

كل هذه بحوث لاطائل وراءها إلاّ الشبهات، وخلاصتها هي: أن الله شاء أن ينشئ حياة على غير مثال، فأنشأها وفق إرادته الطليقة، ندرك اثارها ونجهل ماهيتها، ويجب أن نجهلها لأنها لاتزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة في الارض، مادام إنشاء الحياة ليس داخلاً في تكليف الاستخلاف ! .

والأمر هكذا سهل الإدراك، ووقوعه لايثير الشبهات !

إن ولادة عيسى بن مريم أعجب ماشهدته البشرية في تاريخها كله، ويكاد يكون حادثاً فذاً لانظير له من قبله ولامن بعده، والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها، لم تشهد خلق الانسان الاول من غير أب وأم، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث، فشاءت الحكمة الالهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب، على غير السُّنَّة التي جرت منذ وجد الانسان على هذه الأرض، ليشهدها البشر، ثم تظل في سجل الحياة الانسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال، إن عزَّ أن تتلفت الى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان ! .

لقد جرت سنة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء، حتى المخلوقات التي لايوجد فيها ذكر وانثى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث، جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر في تصوّر البشر أن هذه الطريقة الوحيدة، ونسوا الحادث الاول، وأراد الله سبحانه أن يضرب لهم

(١٥) الإنسال : الانجاب

مثلاً: عيسى بن مريم، عليهما السلام، ليذكّرهم بحرية القدرة وطلاقة المشيئة، وأنها لاتحتبس داخل النواميس التي تختارها:

(ولنجعله آيةً للنّاسِ)[16]

ونظراً لغرابة الحادث فقد عزّ على فُرقٍ من الناس أن تتصوره على طبيعته، وأن تدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تضفي على عيسى بن مريم عليهما السلام صفات الألوهية، تصوغ حول مولده الخرافات والأساطير، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب !.

والقرآن هنا يقصّ كيف وقعت هذه العجيبة، ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفي تلك الخرافات والأساطير:

(واذكر في الكتابِ مريمَ إذِ انتبذت من أهلِها مكاناً شرقياً ●)[17].

هذا هو المشهد الأول: فتاة عذراء، قديسة، وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد، لايعرف عنها أحد إلاّ الطهر والعفة، ولاّ يعرف عنَ أسرتها إلاّ الطيبة والصلاح. هاهي ذي تخلو إلى نفسها، مطمئنة الى انفرادها، ولكنها تفاجأ مفاجأة عنيفة، إن أمامها رجل مكتمل سَويّ:

(فأرسَلنا إليها روحنا فتمثّلَ لها بشراً سَوياً ●)[18]. وهاهي ذي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ الى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي:

(قالت إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إن كنتَ تقيّاً ●)[19]. (قالَ إنما أنا رسولُ ربِّكِ لأهبَ لكِ غلاماً زكيّاً ●)[20].

وهكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى، وتضمنت البشارة اسمه

---

(١٦) مريم ٢١ .
(١٧) مريم ١٦، انتبذت: ابتعدت وتنحت عن أهلها ، شرقيا: جهة الشرق .
(١٨) مريم ١٧ ، روحنا: جبريل عليه السلام، سَوياً: بشراً مستوي الخلق .
(١٩) مريم ١٨ .
(٢٠) مريم ١٩ .

ونسبه، وظهر من هذا النسب أن مرجعه الى أمه، ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه: (وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ●)[٢١].

كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده :

(ويكلمُ الناسَ في المهدِ) .

ولمحة من مستقبله:

(وكهلاً)،

وسمته والموكب الذي ينتسب إليه:

(ومن الصالحين ●)[٢٢].

فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بمألوف البشر في الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة، واتجهت الى ربها تناجيه وتتطلع الى كشف هذا اللغز الذي يحيِّر عقل الانسان:

(قالت ربِّ أنى يكونُ لي ولَدٌ ولم يَمسَسني بَشَرٌ) ؟

وجاءها الجواب يردها الى الحقيقة البسيطة التي يغفل عنها البشر لطول إلفَتِهم للاسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل ومألوفهم المحدود: (قالَ كذلك اللهُ يخلق مايشاءُ إذا قضى أمراً فإنما يقولُ له كُن فيكونُ ●)[٢٣]. وحين يردّ الأمر الى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب وتزول الحيرة ويطمئن القلب، ويعود الانسان على نفسه يسألها: كيف عجبت من هذا الأمر الفطري الواضح القريب؟

فهذا الأمر الخارق الذي لاتتصور مريم وقوعه، هيِّن على الله تعالى، فأمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون ، كل شيء هيِّن، سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره، وروح الله -جبريل عليه السلام- يخبرها بأن هذا هيِّن للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته، ورحمة لبني إسرائيل أولاً وللبشرية جميعاً بعد ذلك بابراز هذا الحادث الذي يقودهم

(٢١) آل عمران ٤٥ .
(٢٢) آل عمران ٤٦ .
(٢٣) آل عمران ٤٧ .

الى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه :

(ولنجعلَه آيةً للناسِ ورحمةً منّا وكانَ أمراً مقضيّاً ●)[٢٤].

وهكذا كان القرآن ينشيء التصور الاسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليُسرِ الفطري القريب، وهكذا كان يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة ، ويقرّ الأمر في القلوب وفي العقول سواء .

ثمّ يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الرجل الذي اختارها الله لإنجابه على غير مثال، وكيف ستمضي سيرته في بني اسرائيل :

(ويُعَلّمُه الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ الانجيل ●)[٢٥].

والكتاب قد يكون المراد به الكتابة، وقد يكون هو التوراة والانجيل، ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان، والحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في موضعها، وإدراك الصواب واتباعه، وهي خير كثير[٢٦].

والتوراة كانت كتاب عيسى كالانجيل، فهي اساس الدين الذي جاء به[٢٧]، والانجيل تكملة وإحياء لروح التوراة، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني اسرائيل، وهذا مايُخطئ فيه الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية، فيغفلون التوراة وهي قاعدة دين المسيح عليه السلام، وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع، ولم يعدّل فيها الانجيل إلاّ القليل[٢٨]، أما الانجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين، وتهذيب لضمير الانسان بوصلة مباشرة بالله من وراء النصوص، هذا الاحياء وهذا التهذيب اللذان جاء المسيح وجاهد لهما حتى مكروا به .

---

(٢٤) مريم ٢١ ، مقضياً: نافذاً لارادّ له .

(٢٥) آل عمران ٤٨ .

(٢٦) قال تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً) . البقرة ٢٦٩ .

(٢٧) قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام (ومُصَدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة) آل عمران ٥٠ .

(٢٨) قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام مخاطباً بني إسرائيل: (ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم) . آل عمران ٥٠ .

ثم تمضي القصة في مشهد جديد من مشاهدها، فتعرض هذه العذراء الحائرة في موقف آخر أشد هولاً :

(فحملته فانتبذت به مكاناً قَصيّاً ● فأجاءَها المخاضُ إلى جِذعِ النخلةِ قالت: ياليتني مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسياً مَنسِيّاً ●)[٢٩].

وهذه هي الهزة الثالثة ! إن السياق لايذكر كيف حملته ولاكم حملته، هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تكسى باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة، إنّ هذا جائز، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية، كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لاتسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً، ويعقبها تكوّن الجنين ونموّه واكتماله في فترة وجيزة، ليس في النص مايدلّ على إحدى الحالتين، فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لاسند لنا فيها، فلنشهد مريم تنتبذ مكاناً قصيّاً عن أهلها، ثمّ هاهي تواجه المخاض الذي (أجاءها)[٣٠] إجاءة الى جذع النخلة واضطرها اضطراراً الى الاستناد عليها، وهي وحيدة فريدة تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولاعلم لها بشيء، ولامعين لها في شيء، فإذا هي قالت:

(ياليتني مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسياً مَنسِيّاً ●).

فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحسّ اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها. وهي تتمنى لو كانت (نسياً مَنسِيّاً) ! وفي حدة الالم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى: (فناداها من تحتِها ألاّ تحزني قد جعلَ ربُّكِ تحتَكِ سَرِيّاً ● وهُزّي إليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقِط عليكِ رُطباً جَنِيّاً ● فَكُلي واشربي وقرّي عَيناً فَإمّا تَرَيِنَّ منَ البشرِ أحداً فقولي إني نذرت للرحمنِ صوماً فلن أكلمَ اليومَ إنسِيّاً ●)[٣١].

(٢٩) مريم ٢٣ .
(٣٠) أجاءها: ألجأها واضطرها . قصياً : بعيداً عن أعين الناس .
(٣١) مريم ٢٤- ٢٦، سرياً: ماء يجري من نبع قريب . قرّي عينا : إهدئي ولاتحزني،جَنِيّاً: ناضجاً شهيّاً.

يا اللـــه !

طفل ولد للحظة يناديها من تحتها، يطمئن قلبها ويصلها بربها، ويرشدها الى طعامها وشرابها، ويدلها على حجتها وبرهانها ! .

لاتحزني .. (قد جعلَ ربك تحتك سَرِّياً ●)، فلم ينسك ولم يتركك، بل أجرى تحت قدميك جدولاً سارياً، الارجع أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل، وهذه النخلة التي تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رُطَباً، فهذا طعام وذاك شراب، والطعام الحلو مناسب للنفساء، والرطب والتمر أجود طعام النفساء ! .

(فكُلي واشربي) هنيئاً ، (وقري عيناً) واطمئني قلباً ،

فأما إذا واجهت أحداً فأعلنيه بطريقة غير الكلام، أنك نذرت للرحمن صوماً عن حديث الناس، ولاتجيبي أحداً عن سؤال . ونحسبها قد دهشت طويلاً، وبهتت طويلاً، قبل أن تمدّ يدها الى جذع النخلة تهزّه ليساقط عليها رطباً جنيّاً، ثم أفاقت فاطمأنت الى أن الله لايتركها، وإلى أن حجتها معها: هذا الطفل الذي ينطق في المهد فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها .

(فأتت به قومها تحمله) ! فلنشهد هذا المشهد المثير :

إننا لنتصور الدهشة التي تعلو وجوه القوم وهم يرون الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل، العابدة المنقطعة للعبادة، يرونها تحمل طفلاً! . (قالوا يامريمُ لقد جئتِ شيئاً فَرِيّاً ● ياأختَ هارونَ ماكان أبوكِ أمر سَوْءٍ وماكانت أمّكِ بَغيّاً ●)[٣٢].

إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب : (يامريمُ لقد جئتِ شيئاً فَرِيّاً ●) . فظيعاً مستنكراً ، ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير: (ياأخت هارون) . النبيَّ الذي يتولى الهيكل هو وذريته من بعده، والذي تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل .

(ماكانَ أبوكِ امرأ سوْءٍ وماكانت أمكِ بَغِيّاً ●) .

---

(٣٢) مريم ٢٧-٢٨ .

حتى تأتي بهذه الفعلة التي لايأتيها الأ بنات آباء السوء والامهات البغايا! وتنفذ مريم عليها السلام وصية الطفل العجيب لتي لقنها إياها : (فأشارت إليه) .

فماذا نقول في العجب والغيظ الذي ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل، ثمّ تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير الى الطفل ليسألوه عن سرها ! .

(قالوا كيف نكلمُ من كانَ في المهدِ صَبياً ●)(٣٣)؛ ولكن هاهي الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى : (قالَ إني عبدُ الله آتاني الكتابَ وجَعلني نبياً ● وجعلني مباركاً اينما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادُمتُ حياً ● وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ● والسلامُ عليَّ يومَ ولِدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أبعَثُ حَيّاً ●)(٣٤).

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله، فليس هو ابنه كما تدّعي فرقة، وليس هو إلهاً كما تدّعي فرقة، وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تّدعي فرقة، ويعلن أن الله سبحانه جعله نبياً، لا ولداً ولاشريكاً، وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، والبرِّ بوالدته والتواضع مع عشيرته، فله إذن حياة محدودة ذات أمد ، وهو يموت ويُبعَثُ، وقد قدّر الله سبحانه له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا .

والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه، وهو لايحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة ولاجدالاً(*). ولايزيد السياق القرآني شيئاً على هذا المشهد، لايقول كيف استقبل القوم هذه الخارقة، ولاماذا كان بعدها من أمر مريم وابنها العجيب، ولامتى كانت نبوته التي أشار إليها وهو يقول : (آتاني الكتابَ وجعلني نبياً ●).

ذلك أن حادث ميلاد عيسى عليه السلام هو المقصود في هذا الموضع، فحين يصل السياق الى ذلك المشهد الخارق يسدل الستار ليعقب بالغرض المقصود في أنسب موضع من

(٣٣) مريم ٢٩ .
(٣٤) مريم ٣٠ .
(*) أول ما كلّم به عيسى عليه السلام بني أسرائيل هو : (إني عبدُ الله) وكأنّ الله تعالى حين ألهمَ عبده عيسى هذه العبارة كان يحذّر بني اسرائيل من الغلوّ في أمر هذا الطفل المعجزة، وإنه رغم كل ماصاحب ميلاده من خوارق لايعدو أن يكون (عبدَ اللّهُ) ! وقد كان ، حتى وصل الغلوّ بأتباعه الى أن اتخذوه إلهاً: (لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيحُ ابن مريم) المائدة ١٧، وقال فريق آخر منهم: عيسى ابن الله . وقال فريق ثالث: إنه ثالث ثلاثة هم اله واحد، وهم ثلاثة .

السياق، بلهجة التقرير، وإيقاع التقرير: (ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحقِّ الذي فيه يمترونَ[٣٥]• ماكانَ للّه أن يتخذَ من ولدٍ سبحانَهُ إذا قضى أمراً فإنما يقول كُن فيكون • وإنَّ اللّهَ ربي وربكم فاعبدوهُ هذا صراطٌ مستقيم •)[٣٦].

ذلك عيسى ابن مريم ، لامايقوله المؤلهون له، أو المتهمون لأمه من مولده، ذلك هو في حقيقته وذلك واقع نشأته، ذلك هو يقول قول الحق الذي يمترون فيه ويشكّون، ويقولها لسانه ، ويقولها الله سبحانه:

(ماكانَ للّهِ أن يتخذَ من ولَدٍ) .

تعالى وتنزّه، فليس من شأنه أن يتخذ ولداً، والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعاف للنصرة، والله باقٍ لايخشى فناءً، قادر لا يحتاج معيناً، والكائنات كلها توجَد بكلمة: كن، فما يريد تحقيقه يحققه بإرادته، لا بالولد والمعين، وينتهي مايقوله عيسى عليه السلام بإعلان ربوبية الله له وللناس، ودعوته الى عبادة الله الواحد بلاشريك:

(وإنّ اللهَ ربي وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم •) .

فلايبقى بعد شهادة عيسى مجال للأوهام والأساطير . وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب في أمر عيسى عليه السلام، فيبدو هذا الاختلاف مستنكراً نابياً[٣٧] في ظل هذه الحقيقة الناصعة : (فاختلفَ الاحزابُ من بينهم) .

ولقد جمع الامبراطور الروماني قسطنطين مجمعاً من الأساقفة -وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة- بلغ عدد أعضائه الفين ومائة وسبعين اسقفاً، فاختلفوا في عيسى عليه السلام اختلافاً شديداً، وقالت كل فرقة فيه قولاً

قال بعضهم: هو الله هبط الى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء . وقال بعضهم : هو ابن الله .

(٣٥) يمترون : يشكون ويجادلون .
(٣٦) مريم ٣٤ - ٣٦ .
(٣٧) نابياً : مرفوضاً ، شاذاً .

وقال بعضهم : هو أحد الأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس.

وقال بعضهم: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله .

وقال بعضهم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته .

وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى . ولم يجتمع على مقالة واحدة اكثر من ثلاث مائة وثمانية اتفقوا على قول فمال إليه الامبراطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين، وشرد المعارضين وبخاصة الموحدين .

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الاساقفة فإنّ الله سبحانه ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الايمان بوحدانية الله، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع اكبر، وترى مايحلّ بالكافرين المنحرفين: (فويلٌ للذين كفروا من مشهدِ يومٍ عظيم ● أسمِع بهم أبصِر يومَ يأتوننا لكنِ الظالمونَ اليومَ في ضَلالٍ مبين ● وأنذرهم يومَ الحسرةِ إذ قُضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ وهم لايؤمنون ●)(٣٨).

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم، بهذا التنكير للتضخيم والتهويل، المشهد الذي يشهده الثقلان:

الانس والجن، وتشهده الملائكة، في حضرة الله الجبار الذي أشرك به الكفار !.

ان شاء الله تعالى ...

الرسالة القادمة ...

عائشة وحديث الأفك

---

(٣٨) مريم ٣٧ - ٣٩ .

نساء في القرآن

هذه هي الحلقة الاولى من (المرأة في ظلال القرآن)،
استعرضنا فيها حياة النسوة اللاتي ورد ذكرهنّ في القرآن الكريم، وكما
جاء في التفسير القيّم (في ظلال القرآن)
وعسى الله ان يوفقنا لإعداد الحلقة الثانية من هذه السلسلة
والتى سنعرض فيها
كل ما جاء في شأن النسوة في القرآن الكريم من العبادات والمعاملات.

اقرأ في هذه الحلقة:-

(١) أم موسى عليهما السلام ... إمرأة ابراهيم عليهما السلام

(٢) بلقيس عليها السلام ... خويلة رضي الله عنها

(٣) زينب بنت جحش رضي الله عنها

(٤) مريم عليها السلام

(٥) عائشة رضي الله عنها

(٦) امرأة العزيز

موافقة وزارة الاعلام ٣٣ في ١٩٩٤/١/٢٦

مطبعة النواعير ...